

فريدريك نيتشه والصحة الكبرى : نحو فلسفة علاجية

Friedrich Nietzsche and great health : towards a therapeutic philosophy

تاريخ النشر: 2025/04/25

تاريخ القبول: 2025/03/10

تاريخ الإرسال: 2025/01/01

بوجنان محمد الأمين¹

¹ جامعة سعيدة ، الجزائر، EMAIL : amineboudejane09@gmail.com

الملخص:

نسعى في هذه الدراسة مقارنة الفلسفة النيتشوية التي أحدثت تحولاً كبيراً في تاريخ الثقافة الغربية المعاصرة، حيث اشتغلت الجينيالوجيا على مسألة الصحة الكبرى من خلال نقل الخطاب الفلسفي من ثنائية الخير والشر إلى الصحة والمرض، وهي قفزة نحو التفكير في كلّ ما يتعلق بالجسد، والتوجّه صوب تحسين جودة الحياة التي تأمرت عليها الخطابات اللاهوتية والمقولات الميتافيزيقية باسم الأخلاق،

يبدو أن فريدريك نيتشه (1844/1900) تفتّن لهذه المأمرة الخطيرة ضد البشرية والحياة، وحلّل بشكل مقتضب منذ أول أعماله مسائل تتعلق بالكيفية التي يجب أن نتعامل بها مع الجسد بوصفه نواة إرادة القوة، فكيف تعاملت فلسفة نيتشه مع قضايا الجسد والصحة؟ وهل يمكن إذن الحديث عن قيام فلسفة علاجية؟

الكلمات المفتاحية: الجسد؛ الجينيالوجيا؛ فلسفة علاجية؛ الصحة الكبرى.

المؤلف المرسل: بوجنان محمد الأمين ، الإيميل: amineboudejane09@gmail.com

Abstract:

In In this study, we seek the approach of Nietzsche philosophy, which has transformed the history of contemporary Western culture considerably. Genetics has worked on the issue of great health by moving philosophical discourse from the binary of good and evil to health and disease, a leap towards thinking about everything about the body, and a trend towards improving the quality of life that conspired with theological rhetoric and rhetoric.

Frederick Nietzsche (1844/1900) seems to be mindful of these dangerous conspiracies against humanity and life, and since his first work he has briefly analysed issues of how we should treat the body as the nucleus of power. How has Nietzsche's philosophy dealt with issues of body and health? So can we talk about a therapeutic philosophy?

Keywords:Body;Généalogy; Philo-therapeutic; Great health.

1.مقدمة:

إنَّ الأنساق الفلسفية الكلاسيكية الكبرى اهتمت بالإنسان من حيث هو ماهية مفكّرة، واتخذت من الوعي المنطلق الضروري لكل ممارسة فلسفية، غير أنَّ هذا المسعى الفلسفي اصطدم مع الشذرة النيتشوية التي عملت على تفكيك مركزية الوعي، عن طريق تبيان الأمراض والمخاطر التي نتجت عن التمسك بفلسفة العقل والإيمان المطلق بقدرته الوعي على تخليص الإنسان .

لقد كان حدسُ الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) عظيما عندما تنبأ بالعدمية النافية Nihilism الناتجة عن الزرع للتفلسف حول الروح بدلا من العناية بالجسد، والبحث عن الخير الأبدي على حساب الإهتمام بالصحة والعافية، وهي التنبؤات التي يمكن ملاحظة صدقتها في الفترة المعاصرة لاسيما بعد التحولات الكبرى والمتسارعة في إعادة اكتشاف الذات من خلال الجسد، إلى

جانب التطورات الهائلة في ميدان العلوم البيولوجية والدراستات الباثولوجية بعد التحول المستمر لفيروس كورونا وتأثيره على الإنسان على كافة الأصعدة.

ومن أجل ذلك، نحاول استحضار النص النيتشوي الذي يرجع له الفضل في تغيير بوصلة التفكير كما كانت سائدة في العرف الفلسفي، أو في محاولة تغيير الاهتمام الفلسفي من ما هو ميتافيزيقي أخلاقي، إلى ما هو جسدي صحي، وهو أول من عرج فلسفي يُعيد الجسد إلى مكانته الأصلية، فما مبررات اهتمام نيتشه بالجسد والصحة الكبرى؟ وكيف يمكن أن تكون الفلسفة علاجية لا نسقية؟.

2. مبررات الإنزياح نحو الفلسفة العلاجية:

تضهر المفاهيم الطبية كالصحة، العافية، المرض، الأرق، الإرهاق وغيرها من المصطلحات ذات الطابع الفيزيولوجي والطبي في فلسفة نيتشه بداية من كتابه مولد التراجيديا The birth of tragedy 1872، فقرأه هذا المخطوط النيتشوي يوضح للباحث اهتمامات نيتشه المبكرة بالشأن الصحي، وفي الوقت نفسه يمثل رسالة واضحة عن امتعاضه من الشكل الذي قدم به الفكر الفلسفي نفسه على أنه تفكير منهجي، عقلاني، نسقي يبتغي بلوغ الخير الكامل والحق المطلق.

لعل المتأمل في مثل هكذا نصوص تشريحية لمسائل متعلقة بثقافة الجسد والصحة، سيحرض الذات على استشكل دوافع ذلك، كما يستفزها للبحث عن دعوى انعطاف نيتشه التاريخي للتوجه في المسلك المناقض تمامًا عما عرضت به الميتافيزيقا الغربية ذاتها كروية متعالية عن الأشياء الصائرة. تتجه الشذرة النيتشوية نحو العناية بالجسد والصحة و طرق العلاج، مع إلحاحها على توظيف الفلسفة بطريقة له حموله علاجية. فيا ترى هل السبب من وراء هذا التغيير يرتد إلى المرض الذي نخر بجسد نيتشه؟ أم يعود إلى غايات فلسفية دفعها الحاجة إلى رفض صورة الفلسفات المثالية والرجوع إلى الموضوع المنسي ممثلًا في الجسد؟ وكيف يمكن أن تكون الفلسفة ذات طبيعة علاجية؟

وأخيرا هل النفس تتحكم في الجسد وتؤثر عليه – كما كان يعتقد الفلاسفة سابقا- أم الجسد هو المسؤول عن الاستقرار النفسي؟

تتصل محاولة الإجابة عن هذه الإشكاليات المقلقة اتصالا وثيقا بمبرر تبني فلسفة علاجية تهتم في موضوعها الأول بالصحة الكبرى، وفي مسعى حل هذه الإشكاليات تبرز الجينيالوجيا Genealogy كأسلوب جديد يحفر في الأصول الأولى لنشأة القيم من جهة، ويشغل على دراسة حركة تطورها تاريخيا ويخضعها للتقويم والنقد، فهي تهدف منذ البداية إلى اكتشاف أسباب انحطاط الثقافة الغربية و العوامل التي أدت إلى مرضها في القرن التاسع عشر، فماهي العوامل التي أدت إلى أمراض الحضارة الغربية و انتشار العدمية السالبة؟

1.2. ضعف ثقافة الجسد نتيجة الأمراض الميتافيزيقية:

إن مبررات ميلاد الفلسفة العلاجية philo-therapeutic بوصفها فلسفة نزعت إلى تحقيق العافية الثقافية والصحة الفيزيولوجية متنوعة الأسباب، إذ تتجلى بشكل سريع من خلال قراءة العنوان الفرعي الموسوم بتباشير فلسفة المستقبل الذي وضعه نيتشه في كتابه ماوراء الخير والشر 1886 Beyond Good and Evil، وهو جملة من التصورات الفاحصة لمسائل فارقة في تاريخ الفلسفة والثقافة وتشخيص مختلف أمراضها. إن مشروع فلسفة تستشرف مستقبل الإنسان بشكل أفضل، تشترط أولا أن تكون في الموقع المعاكس للتقليد الميتافيزيقي الترنسندنتالي الجاف، مما يعني تستلزم أن تموقع نفسها مثلما جاء عليه العنوان الرئيسي لكتاب ماوراء الخير والشر، وهو ما يفرض أن تتخلص الفلسفة من الأخلاق الميتافيزيقية المخالفة للطبيعة البشرية الميالة بطبعها للحياة والمرح.

إنّ مبتغى العلو والتدرّج بواسطة الجدل والمنطق نحو الميتافيزيقا والعالم الفوقي أدّى إلى التّعالي عن منطق الأشياء النسبيّة ومن ثمة الوقوع في الضياع الذي تسبّب في إجهاد الجسد بتعاليم كبحت رغباته في الانتصار، بل لا تعدو تلك الأنساق الفلسفية الكبرى أن تمثّل مجرّد محاولة مرضيّة لإيهام الإنسان بقدرته على الإرتقاء إلى عوالم مفارقة خيرة بواسطة العقل المحض، (Nietzsche, 1908) غير أن الإنسان الحديث أدرك في النهاية أنّ التّصورات كما روّج لها الفلاسفة بتواطئ لاهوتي لا يعدّ المناخ المثالي لرغبات الجسد ونزوات الذات التي تريد تحقيق كينونتها داخل الحياة .

كان مشروع العقلنة Rationalization الرامي إلى أخلقة Ethicalization ما لا يجب أخلقته السبب الأساسي في مرض الفلسفة والثّقافة من جهة، وتوتّر وضع الإنسان داخل الحياة من جهة أخرى، فمن أفلاطون Platon (427 ق.م/347 ق.م) إلى كانط kant (1724/1804) وصولاً إلى هيغل Hegel (1770/1831)، وبالعودة إلى النموذج الأسطوري ممثلاً في الروح الأبولونية Apollonian عرضت الإنسانية في صورة باهتة فتكت بكلّ شيء جميل في الوجود.

في شذرة من الكتاب الثالث من مخطوطه العلم المرح The Gai science 1882 وتحت عنوان "صحّة الرّوح" يقول نيتشه: (ما يهمّ هنا لتحديد الذي يشكّل حالة صحّة، حتى بالنسبة لجسدك، هو هدفك، أفقك، هي قواك، أخطاؤك، خاصّة مثل روحك، وخيالاتها.) (نيتشه، العلم المرح، 1993) ، وهي القولة التي تحدّد مكانة الصّحة والقيمة الواجب التّفكير فيها، وتدعو إلى إعادة التّصالح مع الدّات الفيزيولوجية، التي تمّ إضمّارها في خطابات الفلاسفة بقصد أو بغيره، من خلال اعتباراتهم المضادّة للجسد كأنه خطيئة وهو سبب جميع الشرور والخطايا المتفشّية في هذا العالم، فهذا الحكم المجحف في حقّ غرائز الجسد ما هو إلّا صيغة أخرى لما قدّمته الفلسفة اللاهوتية وبالأخص المسيحيّة

التي ضيّقت نطاقها وأرهقت قدراتها عن طريق ترويج الفلسفة ورجال اللاهوت لثقافة التّدين والإضطغان وتعليق كل الآمال على العالم الحقيقي البعدي. (Nietzsche, 1908)

فمن أهم العوامل التي كانت وراء كل أمراض الفلسفة والثّقافة، تلك الثّنائيات التي تتواجد في الخطاب الدّيني وعلى رأسه المسيحية، ولعلّ من أهم تلك الثّنائيات المظهر و وراء المظهر، العالم الفوقي والعالم السّفلي، وأخيرا التّفرفة التّعسفية بين الوعي والجسد، والعمل على خداع الدّات بمفاهيم أخلاقية مثل الضّمير، الخلف، العالم الحقيقي (Nietzsche, L'Antichrist, 1908). إنّ مثل هكذا تمييز أدّى إلى مُفاضلة محفوفة بالمخاطر وهي في ذلك الهروب من العالم الحسّي إلى عالم الماورئيات التي تركن فيه الطمأنينة الأبديّة حسب النّاسك، في المقابل اعتبار هذا الأخير أنّ الحياة وصيرورتها مجرد وهم، الأمر الذي ساعدهم على غرس فكرة أنّ الجسد وغرائزه مصدر كل الأثام والخطايا، يقول نيتشه في ذلك: (بعد تحويل مصطلح الطبيعة إلى مصطلح معارض لله، فإنّ مفهوم الطبيعة أصبحت من بين المفاهيم المكروهة والمفروضة). (Nietzsche, L'Antichrist, 1908)

لقد كان الإستهزاء بالجسد نتيجة الإيمان باحترام للعالم الفوقي الأخروي والإلتزام للبرادغم المُوخّل الذي يفرض تبني المقولات الميتافيزيقية كالجوهر، الهوية، السببية، عدم التناقض، هذا العداء للحياة دفع بنيتشه إلى شنّ نقد مستمر للفكر النّسقي العقلاني. ففي مؤلّفه هكذا تكلم زرادوش (Thus spoke Zarathustra) (1885-1883) خصّص مساحة لتقويض جميع التّصوّرات التي تعادي الجسد وتحطّ من قيمته، ويُشير نيتشه إلى ذلك بقوله: (ذاتكم تريد أن تُهلك وتضمحل، لذلك غدوتم مستهينين بالجسد، إذ لا طاقة لكم بعد الآن بأن تبدعوا ما يفوق منزلتكم). (نيتشه ف..، 2014). فإكتشاف الجسد والعودة إلى المظهر الذي تمّ احتقاره في النّص الميتافيزيقي هو العنصر الأساسي لمولد أفكار جديدة حول ماهية الإنسان المتفوّق القادر على أن يصنع قيم ذاته بذاته بعيدا عن إملاءات فوقية غريبة عن الحياة.

إذن، مبرّر الإشتغال على ثنائية الصحة والمرض يكمن في المرافعة من أدل حقوق الجسد والغرائز واعتبارهما نواة إرادة الإقتدار والمناخ الطبيعي للإنسان الأعلى، والإهتمام به يقتضي استبدال ثنائية الخير والشر بثنائية أرق وهي الصحة والمرض، ومن أجل كلّ ذلك لزم أن تكون الفلسفة ذات طابع علاجي وليس أخلاقي.

2.2. إرادة الصحة:

في أهم تصريح يقدمه نيتشه لقرائه لعرض مسوغات فلسفته النقدية والتي لا تنفك عن حراسة الحياة وحماية التفاؤل الذي تمّ إعدامه في الثقافة الغربية يقول: (فإنطلاقاً من إرادتي للصحة والحياة صغت فلسفتي...). (نيتشه ف..، هذا هو الإنسان، 2011). إنّ فكرة الصحة والعافية ماهي إلّا رؤية نيتشوية مستوحاة من عدّة مصادر ساهمت في خلق فلسفة جديدة تفكر في الفضاء الذي أبى الفلاسفة منذ القديم الخوض فيه إمّا احتراماً لروح النّسق والإبتعاد عن التناقضات الموجودة بين المعقول "الروح" واللامعقول "الجسد"، وإما لاعتبارات أخلاقية وميتافيزيقية بحتة.

إنّ قراءة جميع الأعمال النيتشوية تُظهر حضور الجسد أو المصطلحات المتعلقة به بشكل لا نظير له، مع مفاضلته لاستخدام ثنائية الصحة والمرض، حيث كانت تجربة نيتشه مع المرض من جهة، إلى جانب التطوّر الهام في ميدان العلوم البيولوجية في القرن التاسع عشر ونشأة الدراسات التخصصية في هذا الميدان من بين المصادر التي قادت إلى توظيف الفلسفة بشكل مخالف للصيغة السابقة للفلسفات المثالية والنسقية.

فلا يمكن فصل حياة أيّ فيلسوف عن أفكاره، حيث يعاني من هموم معرفية، فيزيولوجية، إجتماعية أو حتى نفسية... الخ، قد تُؤثّر بشكل أو بآخر على فلسفته ومسارها. يصحّ نيتشه عن ذلك في كتابه هذا هو الإنسان Thus is man بالقول: (... كم أنا مدين كثيراً لمرضي الطويل بالنسبة لهذه الأشياء، إنّ المشكلة ليست بالدقة بسيطة، إنّ

الإنسان يجب أن يعيش التجارب من خلال قوّته وضعفه معا). (نيتشه ف..، هذا هو الإنسان، 2011)، في هذا الكتاب ألقى الضّوء علاقة فلسفته بحياته ومرضه، ووضّح أن غريزة الشّفاء كانت عاملا في اختياره لأسلوبه الفلسفي الفريد، كما تحدّث بشكل مقتضب عن تأثير مرضه وضعفه في نزوعه إلى صياغة فلسفة تبتغي الجانب الإستشفائي.

عاش نيتشه معظم حياته تحت وطأة المرض الذي أّثر كثيرا على جسده، تصوّراته الفلسفية والفنيّة، وحتى على سلوكياته، بحيث لم يكن المرض العضوي عائقا بالنسبة له لعلاج أمراض الثّقافة والأخلاق التي تتخيّط فيهما أوروبا في القرن التاسع عشر، بل كان الألم المصحوب بالإضطرابات العصبية دافعا نحو التّفكير عن إرادة حالة ثقافية صحّية. فحالة نيتشه الصّحية أظهرت له أن الإندفاع نحو الحياة لا يتفجّر إلّا عن ذات تؤمن بقوّة جسدها.

فقد يكون المرض في الكثير من الأحيان باعئا للحياة و العامل الذي يساعد على الإنخراط داخلها (نيتشه ف..، هذا هو الإنسان، 2011). فلا يدرك الإنسان قيمة الصّحة إلّا من بعض الوقوع في حالة من المرض، ولا تُعرف القوّة إلّا بعد المرور بالضّعف، فتتجلى قيمة الحياة من خلال هذه ثنائية الصحة والقوّة معا، فيكون ذلك أشبه بطائر الفينيق — كما عرضتها الأسطورة الإغريقية- الذي يبعث من جديد من رماد جسده المُحترق.

لقد مرّت تجربة نيتشه مع المرض من خلال لمرحلتين أساسيتين، وهما:

أ-المرحلة الأولى : إصابته بداء زحار أو ما يسمى علميّا الدوسنتاريا Dysentery، وهو من بين الأمراض المعدية التي تصيب الجهاز الهضمي، فعندما كان في الخدمة العسكرية أثناء الحرب الفرنسية-الألمانية سنة 1870، أصابته نوبات هضمية عنيفة، 1873 رافقها إسهال شديد وآلام في المعدة و غثيان شديد، أحدث له صداعا في الرّأس،

وسبب له صعوبة في عملية التنفس، وهو ما أدى إلى ضعف بصره الذي لازمه طوال حياته، (جعفر، 1999)، وفي هذا الطور عرف النص النيتشوي غزارة في الإنتاج.

ب-المرحلة الثانية: وهي مرحلة الجنون وعرف فيها نيتشه انهيارا عصبيا حادا وتدهورت حالته الصحية، حيث كان المرض في هذه المرحلة أشدّ عنفا وفتكا، وتبدأ من سنة 1887 وانتهت به إلى نوبات عصبية حادة من الشلل الجنوني وهو شكل من أشكال الإضطرابات النفسية تُصنّف من جنس الإضطرابات العصبية الدماغية، وعرفت فلسفته في هذا الطور النقد الجذري لجميع الأفكار الفلسفية والخطابات اللاهوتية. (جعفر، 1999)

يعترف نيتشه بفضل المرض على صحة وعافية أفكاره وصحتها حول المسائل الوجودية والجمالية أبانت له قيمة الحياة، إنّ معاناته مع المشاكل الهضمية ثم ضعف بصره ، إلى جانب استمرار النوبات العصبية الحادة، جعله يعتزل العالم البراني والإجتماعي، فلم يكن ذلك سلبياً بقدر ما أثار بشكل قوي على مجمل تصوراتهِ حول الإنسان، الحياة، والفن.

لقد وقف الكثير من قراء نيتشه على دور المرض والجنون في نزوعه إلى اللامعقول ومرافعته المستمرة للدفاع عن الجسد والحياة، وهو ما يمكن ملاحظته في كتاب "أنا عبوة ديناميت" للروائية سو بيردو التي استقصت بشكل مقتضب تقاطع أفكار نيتشه مع حياته واعتبرت مرضه العضوي والنفسي سببا في عافية فلسفته وعظمتها، كما أنّ جان غارنييه في عمله الموسوم: " نيتشه" ذهب إلى أنّ وعي فيلسوف الطريقة بمزايا مرضه كان حافزا للتفكير الفلسفي الفريد من نوعه ودافعا إلى النقد الجذري لجميع القيم السائدة، فيوجد شيء من العقل داخل الجنون وهو ما ساعد الجينولوجيا النيتشوية أن تنصّب نفسها كمفتتح لعصر جديد يؤمن بثقافة الجسد ويعمل على تخطّي الجروحات السابقة.

3. الفيلسوف الطبيب ودوره العلاجي:

إنّ الصورة التراجيدية التي عرضتها الثقافة الغربية في القرن التاسع عشر، ما هي إلا نتيجة للتعاطي المفرط مع قضايا مضادة لإرادة الصحة ومنافية للعافية التي ترومها الثقافة من جهة والطبيعة الإنسانية من جهة أخرى ، لهذا يجب إعادة تقييم تاريخ الفلسفة والثقافة بتشخيص مجمل الأمراض الأخلاقية واللاهوتية، وحتى الجمالية والمعرفية التي أصابت جسد الإنسان بدرجة أقل و جسد الثقافة بدرجة كبيرة ، لقد كتب نيتشه في ذلك شذرة مسماة: "المفسرون المسيحيون للجسد" من كتاب الفجر: (كلّ ما قد يكون مصدره المعدّة، أو الأمعاء، أو نبضات القلب ... يعتبره المسيحي مثل باسكال ظاهرة أخلاقية ودينية، ويتساءل عمّا إذا مصدره الربّ أو الشيطان... ياله من مفسّر شقي مع الأسف!). (نيتشه ف.).

فالفهم الحقيقي لمثل هذه القضايا المتعلقة بالوظائف الفيزيولوجية أو البيولوجية للجسد، أو حتى المهام الرئيسية المنوطة للفلسفة على وجه الخصوص، تقتضي بالأساس إعادة النظر في مهام الفلسفة بالدرجة الأولى، وضبط دور الفيلسوف والموضوعات التي يجب أن يفكر فيها بالدرجة الثانية.

حيث قام نيتشه في بداية مساره الفكري بقراءة فيلولوجية بارعة للأدب الإغريقي ثم الألماني والأوروبي لينصب نفسه فيلسوفا للمهام الجريئة التي تهدم كل ما تمّ بناؤه بدون أقنعة ، وذلك بالإعتماد على أدوات جينialogية تتقصّى مصدر أمراض الثقافة وضعف الحس الفلسفي للجسد. هذه المهمة تفرض الإرتداد إلى الثقافة الإغريقية الماقبل السقراطية التي كانت تتمتع بالوفرة والإمتلاء، القوة والقدرة ، الفرح والنشوة، حيث تتساءل الجينialogيا عن سبب الحالة الصحيّة للثقافة والجسد في تلك المرحلة، مقابل المرض والعدمية مع بروز الفكر السقراطي.

يجيب في عمله مولد التراجيديا وكذلك الفلسفة في العصر المأساوي، عن هذه الأسئلة بالحفر في التراث الغربي وتحليل الكيفية التي تم بها التعامل مع الجسد عند الإغريق من خلال التأمل في وضع الجسد في أفق الموسيقى والرقص والنحت، أو الجسد داخل الفن بشكل عام، حيث يضع صوب أعيننا النموذج الميثولوجي للصراع اللامتناهي

بين ماهو أبولوني وما هو ديونيزوسي ، بحيث يمثل الأول الروح و الشكل المنطقي للعقل والفن أما الثاني يمثل الجسد والغرائز والصورة اللامعقولة للحياة والنشوة.

في النموذج الديونيزوسي تظهر حركات العينين والفم، اليدين والرجلين ، كحالة جمالية فريدة من نوعها نتيجة للإيقاع القوي للموسيقى الديثرامبية، فالاحتفاء المنظم لإحياء الروح الديونيزوسية علامة على صحة الفن والجسد عند الإغريق، وبالتالي وجب أن تكون الفلسفة شبيهة لما قدّمه كورس الساتير أتباع ديونيزوس، أو تكون الفضاء الأساسي الذي يدافع عن قيمة الجسد، ويؤسس للتصورات التي تعيد إلى المنظور إليه والظاهر القيمة التي تمّ سلبها لدواعي أخلاقية مع السقراطيين ولأسباب إيديولوجية مع التنوريين.

ومن هنا، نقل نيتشه الفلسفة من دائرة الأخلاق والميتافيزيقا إلى دائرة الجسد والطب، و في ذلك يغيّر تماما من عمل الفيلسوف والمهام المنوطة إليه، حيث وجب عليه أن يبحث في البداية عن من هو الفيلسوف؟ بدلا من البحث عن ما هو الفيلسوف؟ لأن المقاربة الأولى ترمي إلى تحديد موقع الفيلسوف في الوجود، أما الإستشكال الثاني قد أجاب عنه الفلاسفة إجابةً ماهوية تبين هدفه، منهجه، موضوعاته.

ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في الفيلسوف الطبيب حسب نيتشه؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تحددها الصفات التي نسبها نيتشه إلى نفسه على وجه الإشادة تارة، والصفات التي كان يذمها ويوجه لها انتقادات عنيفة لجمهور الفلاسفة تارة أخرى. إن الفيلسوف - حسب- يلزم أن يكون لا أخلاقيا ولا نسقيا كما أنه لا يحتكم لأي منهج قارّ أو سلطة خارجية، إنه بطبيعته فوضوي، فنّان، جينيالوجي وخبير بالحياة، يحرض الذات على تفجير قوتها لمواجهة قدرها ، الفيلسوف الطبيب يحفز الغرائز على الإنخراط في الحياة، ولا يتأمر مع الميتافيزيقا ضد الإنسان، كما لا يجعل الأخلاق أداة لقتل ما هو جميل وجليل في الوجود.

إذن، الفيلسوف الحقيقي وجب أن يكون طبيبا، فيزيولوجيا، لاراهنيا، سليل ديونيزيوس ، يساعد الجسد على الإرتقاء نحو الأفضل وليس الأعلى من خلال إبداعه لقيمته الخاصة. فالفيلسوف الطبيب لا يستجيب للقواعد الفوقية والإملاءات الخارجية إنّما يفحص، يُشرّح ويشخص ويعالج. فالفلسفة العلاجية تنزع إلى تشخيص الأمراض التي تقود إلى العدمية والإنحطاط، وتعمل على تطهيره الإنسان من الأوهام التي سلبت حريته.

فكلّما تخطّت الأنا هذه المعيقات الموروثة وارتدّت إلى الجسد ستجد الفرصة المناسبة لتنبّت كينونتها على هذه الأرض.

تبلور إرادة الإقترار داخل إرادة الصّحة، وتظهر فقط لدى الإنسان المتفوّق الذي يدرك أنّ الجسد هو الآخر عقل وجب التّفكير به وفيه. فالتّفلسف بالجسد الإمكان الوحيد الذي يخلع الأقنعة ويطيح بالأوثان كونه يعبر بكل شجاعة عن الطبيعة الديونزيوسية التي تكتنف الدّوات البشرية.

لم تكن الحداثة سوى اللحظة التّاريخية التي حاولت التّقليل من الجانب الغريزي للأنا وعملت على إقامة قطيعة نهائية مع كل ما يمتّ للجسد بصلة لصالح الروح . ولهذا الفيلسوف الطبيب بوصفه جينياالوجي، ناقد، يؤوّل ويقوّم سيقف وراء كل الأمراض التي تصيب جسد الحضارة البشرية، فهو في كل لحظة يستحضر ما كان و يستشعر ما هو كائن، ويفتح آفاقا مستقبلية تؤهل الإنسان صوب الإرتقاء بإنسانيته بعيدا عن صورة الإغتراب التي كان يعيشها الإنسان الغربي في العصر الحديث بسبب سياسة الإقصاء وثقافة الإستهلاك، نتيجة محاولة تنويرية للسيطرة على الطبيعة، عجلّت بالسيطرة على الإنسان لصالح الطبيعة، فمشروع التّقدم والتطوّر بواسطة التّقنية والعلم لم تنتج سوى إنسان منفعلا، خاضعا، متشائما خاضعا لمنطق الآلة .

4. قضايا حول الصحة الكبرى:

إن الصّحة الكبرى The Great Health هي مشروع فلسفي يهدف إلى بعث القوّة الحيوية من داخل الدّات الفيزيولوجية والنّفسية، وهو ما يحقّق ممكنات الحياة بواسطة إرادة الإقترار، وهذه الإرادة لا قيمة لها بمعزل عن فوضى الغرائز والرّغبات الطّائشة، فالصّحة الكبرى في الفلسفة النيتشوية هي القدرة على ترويض المعاناة والقلق الذي يدبّ في الوجود، وتحويل الألم نفسه بواسطة الموسيقى إلى حالة من الغبطة والفرح كعلامة من علامات التّفاؤل (نيتشه ف.، مولد التراجيديا، 2008) كما كانت سائدة لدى الإغريق القدامى في المرحلة الميثولوجية.

إنَّ اللَّحظة النيتشوية تعدُّ اللَّحظة الفارقة كونها سعت إلى توظيف الصَّحة داخل الخطاب الفلسفي، فهي بذلك تمثِّل انتقالاً جذريّاً من إرادة الحقيقة والتَّسق إلى الإعتقاد بالتأويل واللاتَّسقية، أو بصيغة أدقّ الإنعطاف من فلسفة الرُّوح التي تؤمّن بالفضائل إلى التَّفكير في الجسد واقتداره على العافية من الأمراض التي أنهكت قواه قروناً عديدة.

إن هذا المنعطف يفتح النوافذ لدخول قضايا جديدة بالتأمّل وعلى رأسها آليات تحقيق الصَّحة الكبرى، وهو التحقيق الذي يعزّز القدرة على بلوغ إمكانات حياة صحيّة، مما تمكّن الإنسان من إدراك الفرح الغامر والسَّعادة الفيزيولوجية، بشكل مغاير لما قام به أفلاطون عندما حشر الجسد داخل ظلمات الكهف، ووضعه في أسفل مراتب مشروعه المثالي.

بإختصار، الصَّحة الكبرى هي العمل على قيادة الجسد نحو وضع أفضل وصحي وقلب تراتبية القيم، ليكون الجانب العضوي في أعلى مراتب الاهتمام والعناية. ولكي يحصل هذا المُراد وجب على الفلاسفة التحسيس بقيمة الجسد ورسم الخطوط الصَّحية التي لزم على الجسد اتباعها من تغذية، نظافة، مناخ، نمط الحياة، ممّا يساهم في تحسين حالته الفيزيولوجية والتَّفسية، وتمكينه من خلق فرص ترفع من القدرة على مواجهه مصيره داخل الحياة. فكيف يمكن الظُّفر بذلك حسب نيتشه؟

1.4. النظام الغذائي و الصحة الفيزيولوجية:

اهتمَّ نيتشه في عدّة شذرات ومأثورات بصَّحة الجسد ووقايته من الأسقام، ونجد ذلك حتى داخل مراسلاته لصديقه كارل فون غسدورف، وبيتر غاست وكذلك إلى أخته إليزابيت، إذ نعثّر على بعض النصائح الهامّة حول أهمية الصَّحة الجسدية والعناية به، لأنَّ الجسد -حسبه- هو النهج المؤدي إلى مولد الإنسان المتفوّق (نيتشه ف.، 2014).



إن أعمال نيتشه مثل " الفجر " و " هذا هو الإنسان " ، من بين الكتب التي يفصل فيها نيتشه في كيفية العناية بسلامة الجسد سواء تعلّق الأمر بالتمثيل الغذائي، دور المناخ، أو النظافة وغيرها من الموضوعات التي تعزّز النشاط الوظيفي للجسد. حيث ورد في الفقرة 203 من كتاب الفجر عنوانا يحلّل نيتشه نمط التغذية السيئة وتأثيراتها على الوظيفة المثالية للجسم ، يقول فيها تحت مسمى " الحمية السيئة ": (أفّ من الوجبات التي يعدّها النّاس الآن في المطاعم، كما في أماكن إقامة الطبقات الميسورة ! وفق مبدأ الوفرة والتنوّع ... مع ضرورة تناول المشروبات المنّمة لتساعد على الأكل على تنشيط المعدة والدماغ). (نيتشه ف.، 2013)

يلعب النظام الغذائي دورا مهما في مدّ الطّاقة للجسم للأداء الجيّد للأعضاء، ومن الفقرة النيتشوية السابقة يتبيّن الرّفص للأعراف المتداولة في الأكل لدى الكثير من النّاس وينوّه إلى الطبقات الميسورة التي تعتمد إلى الوفرة والتنوّع وتناول المشروبات التي تساعد على زيادة الأكل، وهو بين السلوكيات المرفوضة ببيولوجيا، والسبب من وراء ذلك أنّ الإفراط في الأكل أو ما سمّاه نيتشه بالحمية السيئة يؤدي إلى مشاكل هضمية في البداية، تظهر في إجهاد عمل المعدة ومن ثمّة إرهاب البنكرياس الذي يعمل على تنظيم توازن السكري في الجسم، وتكسير الأطعمة فالحمية السيئة تخلق اضطرابات توازن في الهرمونات التي يفرزها البنكرياس مثل الأنسولين والجلوكاغون. وينتهي الأمر إلى التأثير السلبي على الدماغ ونشاطاته الإدراكية والعصبية.

ففي نفس الفقرة يحلّل انعكاسات سوء النظام الغذائي وتبعاته الخطيرة على الجسد والنفس البشرية، وكذلك المساوي التي ينتجها النمط الغذائي السيء على المعرفة بشكل خاص، يقول حول ذلك: (أفّ من التّفسخ والحساسية المفرطة اللتين ستنتجان عم ذلك الطّعام ! أفّ من الأحلام التي سيراهما أكلوا هذا الطّعام في المنام ! أفّ من الفنون

والكتب التي ستكون تحلية بعد عذا الطّعام!...) إنّ هذا التّحليل النيتشوي لا يبتعد عن التفسير العلمي لعلاقة الهضم بدور الدّماغ المعرفي والسيكولوجي، كيف يحدث ذلك؟

إنّ عملية الهضم تمرّ بمراحل تبدأ من تفكيك ميكانيكي وكيميائي تقوم به أعضاء مخصّصة لذلك كالفم والمعدّة وصولاً إلى الإمعاء من أجل عملية الإمتصاص، إلى جانب تدخّل الكثير من الأعضاء والهرمونات والوظائف الهضمية المعقّدة، التي تنقل الطّاقة والإحتياجات الغذائية الضرورية إلى الخلايا الدّماغية على شكل أحماض أمينية وغلوكوز، فتناول الأكل الغير صحّي وبطريقة لمنتظمة حتما سيؤثّر على الحالة المزاجية بعد التأثير السّلبّي على هرمونات دماغية مثل الدوبامين " هرمون السعادة" وكذلك النّاقل العصبي السيروتونين الذي يلعب دوراً هاماً في إفراز هرمون الرّاحة حيث يقوم بتنظيم الشّهية، تحسين المزاج وخفض مستوى الإكتئاب والقلق، إضافة إلى تعديل حالة النّوم بشكل مثالي،

إنّ السيروتونين يتفاعل مع النّظام الغذائي وعمل المعدّة ويتأثر بهما ويؤثّر في الجهاز العصبي ومجمل الهرمونات التي يفرزها، وبالتالي نستشف في الفقرة النيتشوية أنّه هناك علاقة وثيقة بين عمل المعدّة وعمل الدّماغ، كما أنّ هناك تأثير كبير بين الأكل والتّفكير، فالإفراط في التغذية أو حتى سوء التغذية لا يتسبب في مشاكل صحّية فقط، بل يقود إلى اختلالات في العملية الإدراكية وما تقتضيه من تركيز وإنتباه وتفكير وتذكّر، في نفس الوقت يؤدي إلى اضطرابات نفسية كالقلق أو الإكتئاب وتغيّرات مزاجية مثل العصبية..

2.4. تدابير الصّحة النّفسية:

إنّ الصّحة الكبرى لا تقتضي التّغذية الجيّدة أو المناخ الملائم أو حتى عوامل أخرى مثل النّظافة وشروط البيئة المثالية، بالرّغم من أن نيتشه لم يفته ذلك بالحديث



والتحليل، بقدر ما تحتاج كذلك إلى شروط نفسية ترفع من أداء الجسد أو تتحالف ضده، ولعل أهمها الإرتباك، الرهبة، الخوف، وكذا الإستياء الناتج عن السخط والإنزعاج، فلا شيء يقتل الإنسان ويستنقذ طاقته الحيوية وينهك جسده مثل انفعال الإستياء والحساسية المفرطة من أشياء غير مرغوبة فيها: (إن الإستياء يجب منعه فوق كل شيء عن المريض - فهذا هو خطره (هو) الخاص...) (نيتشه ف..، هذا هو الإنسان، 2011)، فله وقع خطير على الصحة نظرا لتدقق عال من الأدرينالين والكورتيزول في الجسم، وبالتالي زيادة النشاط العصبي الذي يحدث سلوكيات سلبية تعيق التوافق مع متطلبات الحياة.

إنّ الروح المرحّة الباعثة للتفاؤل وحدها من تصنع الإنسان المتفوّق، فمن بين علامات الصحة الكبرى تحقيق شرط الإنسان المتفوّق الذي يمتلك القدرة النفسية والفيزيولوجية في الانتقال من المرض إلى الصحة أو العكس، فهذا التفوّق يبدأ من إنجاز عملية علاج الجروح التي تنزع إلى تحويل الحوادث الهزيلة إلى قوّة.

فمن بين علامات الصحة النفسية هي هذه القدرة على التحويل السيكلوجي للمظهر والمنظور إلى متعة ولعب، وهو ما سيساعد على إثارة الهرمونات المحفزة للحياة - الدوبامين والسيروتونين والإكسيتوسين-، عن طريق إفراز جرعات كبيرة من الشعور بالراحة والمشاعر الإيجابية والفرح الغامر. إذ ستظهر نتائج إقبال الإنسان على الحياة على شكل سلوكيات فيزيولوجية مثل الصّراخ، البكاء، الضحك، الرقص... الخ، و بالتالي لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل ما هو فيزيولوجي عمّا هو سيكلوجي، فذلك الاعتقاد الذي احتكم له العقل الفلسفي على أنّ الوعي ومجمل الأحوال النفسية تؤثر بشكل كبير على الإنسان، لم يلقى ترحيبا داخل الشذرات النيتشوية التي قلبت المعادلة رأسا عن عقب، بل حتى الطّب التجريبي المعاصر ومختلف الدّراسات السيكلوجية العصبية والسلوكية لم تؤيد الطّرح الميتافيزيقي الرافض لمقولات الجسد ودوره في توجيه الكثير من العمليّات السيكلوجية.

فالعلاج النفسي يجب أن ينطلق من النقطة التي ترجع الذات إلى جسدها من باب المصالحة والتعارف والإعتراف أو القيام بعملية هامة في المجال الطبي ألا وهي الفحص الذي لا يقل أهمية عن عملية التشريح أو العلاج، وهو ما تعافل عنه القدامى حيث كانت تخرج الذات من ذاتها نحو الخارج لإرضاء الموضوعات، مثل حال المسيحي - على حدّ تعبير نيتشه- الذي يفضّل إفناء ذاته في سبيل الرب، أو مثل حال شكسبير الذي أعدم حياته في سبيل العشق إلى حد التماهي معه، إن مثل هكذا تخرج ما هو إلا صورة عن هروب المرء من نفسه، الذي يسبّب في نظره إلى داء الصرع. (نيتشه ف..، 2013).

وعليه، لا يمكن بلوغ الصحة النفسية إلا من خلال العناية بالذات أولاً، والنوّه إلى الإنخراط في الحياة ثانياً، والعيش في أفقها بما تفرضه المنظورية من تقلّبات وصيرورة دائبة على وجه المحبوبة والتفأؤل، وليس الإكراه والتشاؤم، إن الإستمتاع بالمرئي يثير حاسة البصر التي تنقل الأشكال إلى الدماغ فيستجيب لها بالقبول أو الرّفص مما تساعده على تفجير إرادة الإقتدار والمواجهة، هذا الأخير سيطي جرعاً زائدة من السعادة للجسد على قبول التّحدي وليس الهروب من العالم الخارجي، وهو ما ينطبق على الموسيقى التي تثير الأذن أو الروائح التي تثير الأنف.

إن الاختلاف الأنطولوجي والتضاد على مستوى الحياة السيكلوجية لهما دور كبير في الصحة الكبرى، لأنّ العافية تبدأ من ما يسميه نيتشه القدرة على التسامي، وهو تحويل الأفكار المستعصية وعبث الوجود وألامه إلى تصوّرات متعايشة مع الحياة (نيتشه ف..، مولد التراجيديا، 2008)، ومن أجل ذلك، لابد من تحقيق شرط كفاءة الإنتقال من الألم إلى فرح، ومن الضّعف إلى قوة، ومن المرض إلى عافية، والتنقل بينهما بشكل مستمر، أشبه ما يكون بلعبة الطّفل الذي يلجأ إلى البناء والتدمير لتحقيق سعادته.

حيث كان النموذج الديونزيوسي شكل من الصحة الكبرى، في حين كان نموذج المسيحي صورة من صور المرض والإنحطاط، والفرق بينهما يتجلى في أنّ النموذج الأول رفع من قيمة الجسد والفن عن طريق الإنخراط في الألم الوجودي والنفسي برسمه داخل لوحة فنية جميلة ممثلة في طريقة إحتفال كورس الساتير، لأنّ الموسيقى الديثامبية استطاعت تحويل الرعب الذي يكتنف الوحود إلى لعب ورقص، أما الثاني ألغى الجسد وأسدل الستار على كل ما يمتّ للفرح بصلة وفضل الإكتفاء بتعاليم أخلاقية صارمة كبحت قوّة الإرادة وجعلتها ضعفا مما أدت إلى تفشي كل أنواع العدمية وساهم في الإنحدار نحو الإنحطاط والإغتراب.

5. خاتمة:

على ضوء ما سبق، نستنتج أن فلسفة فريدريك نيتشه يمكن قراءتها من أكثر من زاوية، حيث قدّم فلسفة متكاملة حول الإنسان، الوجود، القيم، إعاد النظر في الكثير من القضايا المنسيّة في تاريخ الفكر الفلسفي. لا يتوقّف الأمر عند هذا الحد بل فتح آفاقا جديدة للفلسفة لمواصلة مشوارها العظيم من خلال مقارنته لأسئلة جديدة ترتبط بما هو عملي وتطبيقي.

تظهر الفلسفة التطبيقية داخل الشذرة المتخمة بالمعاني في تحليل نيتشه مسائل تتعلق بالجسد ، وهو الموضوع الذي يبرز قيمة الجسد بوصفه يستحق التفكير كموضوع للجماليات أو الوجود أو المعرفة، بل كذلك كحالة تتطلب الفهم البيولوجيلتحسين جودة الحياة. فتحت الجينيالوجيا النيتشوية مجالا لمرحلة جديدة تعيد اكتشاف الجسد من جديد، وظهرت تنبؤات نيتشه على أرض الواقع في الربع الأول من الألفية الثالثة بميلاد فجر جديد للثورة الطّبية تمخّضت من التحوّلات الكبرى للطب التجريبي الذي هدف إلى التفكير في تحسين النوع البشري ويعتني كذلك بالتشخيص والعلاج، فما نجاح مشروع الجينوم البشري ، واكتشاف العلاج المناعي والعلاج بالخلايا الجذعية، وإدخال التقنية في

التشخيص والعلاج مثل الذكاء الاصطناعي ، وصولاً إلى الابتكارات الكبيرة مثل التعديل الجيني وزراعة الأعضاء الاصطناعية ما هي إلا دلالة على إرادة الصحة وإرادة الحياة كما يندفع إليها الطبع الإنساني ، لهذا كانت فلسفة نيتشه علاجية تهتم بالجسد وتشريحية تهتم بالثقافة، وبين هذا وذاك يجب تحقيق الصحة الكبرى التي تعتبر الشرط الأساسي لميلاد الإنسان المتفوق.

6. قائمة المراجع:

- 1.Nietzsche, F. (1908). *Crépuscule des idoles*. (H. Albert, Trans.) Paris: édition de la Société du Mercure de France.
- 2.Nietzsche, F. (1908). *L'Antichrist*. (H. Albert, Trans.) Paris: 'édition de la Société du Mercure de France.
- 3.جعفر عبد السلام صفاء (1999). *محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه*. الأناطلة مصر: دار المعرفة الجامعية.
- 4.نيتشه فريدريك (1993). *العلم المرح، ترجمة. حسن . بورقيبة محمد الناجي*،.الدار البيضاء:إفريقيا الشرق.
- 5.نيتشه، فريدريك (2008). *مولد التراجيديا* .، ترجمة شاهر حسن .عبيد، سوريا :دار الحوار للنشر والتوزيع.
- 6.نيتشه، فريدريك (2011). *هذا هو الإنسان* .، ترجمة، مجاهد عبد المنعم مجاهد،(الجيزة –مصر): هلا للنشر والتوزيع.
- 7.نيتشه، فريدريك (2013). *الفجر*،. ترجمة محمد الناجي، (الدار البيضاء-المغرب): إفريقيا الشرق.
- 8.نيتشه فريدريك (2014). *هكذا تكلم زرادشت*، ترجمة فليكس .فارس ، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

